

## عمر في بيته

كان الخليفة الأكبر - صاحب الأمر في الجزيرة العربية، وصاحب الغلبة على ملك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة، ومدبر الحكم في الرقعة الوسطى بين قارات العالم المعمور - رجلاً فقيراً يعيش في بيته عيشه الكفاف، ويقنع من الغذاء والكساء بخط لا يتمناه كثير من الرجال، ويزهد فيه كثير من النساء.

فمن غير العيب أن يخاطب بعض النساء فيأبين عيشه، وقد أبى مثل هذا العيش نساء النبي عليه السلام، فلم يقبلنه إلا وقد خIRON بينه وبين الطلاق.

وما ندرى أى الشهادات لحكم الخليفة الأكبر أعلى وأجمل، فإن الشهادات لحكمه أكثر من أن تحصى، وهى جميعاً مما تغالى به السير وتزدان مجماله، ولكننا لا نعرف بينهما ما هو أعلى وأجمل من هاتين الشهاداتين: أن يعيش في بيته عيشاً لا يشتهى، وأن تكون في يده صولة الملك فلا ترى فيها امرأة من النساء خلافة<sup>(١)</sup> تغرها، ولا صولة تخفيها من أن ترفضها وتأبأها.

إن امرأة واحدة ترفض عمر لأعلى في الشهادة له من ألف امرأة يقبلن على بيته ويطمعن في سلطانه.

وقد وصفته امرأة خطبها ورفضته وصفاً ولم نسمع فيما قبل عن إيمانه بالله أصدق منه ولا أوجز وأوفى، فقالت أن أبان بنت عتبة بن ربيعة أنه رجل "أذهله أمر آخرته عن أمر ديناه، كأنه ينظر إلى به بعينه".

والذى نعينه من الوصف هو قولها عن مخالفته الله أنه كان يخافه كأنه يراه بعينه.

فهو من الحق أصدق وصف لإيمان هذا الرجل المنفرد بإيمانه كما تفرد بكثير من شئونه. إنه تجاوز حد الإيمان إلى حد الرؤية والعيان، وحقق

(١) خلافة: أى ما يخلب ويخدع.

مبالغات أبي الطيب المتنبى حين وصف الغاية القصوى من الشجاعة والحكمة فقال:

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

ومهما يكن من إيمان بالغيب لا يبلغ فى اليقين والحضور مبلغ الرؤية بالعين، وهى قوله عابرة من قائلة أصابت ما لم يصبه قائل، ولعلها لا ندرى مدى صوابها. وخطب عمر أم كلثوم بنت أبى بكر إلى أختها أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فقالت له: الأمر إليك: ثم سألت أختها فأبته وقالت: لا حاجة لى فيه. فزجتها قائلة: أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت: نعم، إنه خشن العيش شديد على النساء. وكرهت عائشة أن تجبه<sup>(١)</sup> بالرفض فوسطت فى الأمر عمرو بن العاص يختال له يرفقه وحسن تدبيره، فجاء عمر وفاجأه قائلاً: بلغنى خبر أعيدك بالله منه. قال ما هو؟ قال: خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر. قال نعم، أفرغبت بى عنها أم رغبت بها عنى؟ قال لا واحدة، ولكنها حدثت<sup>(٢)</sup> نشات تحت كنف أمير المؤمنين فى لىن ورفق، وفيك غلظة، ونحن نهابك وما تقدر أن نردك عن حلق من أخلاقك. فكيف بها إن خالقتك فى شىء فسطوت بها؟ كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك!.. ففهم عمر أن بن العاص لا يقدم على هذه الوساطة بغير موسط، وأن فى الأمر ممانعة على نحو من الأنحاء.. فسأله كأنه يستطلع ما وراء من الممانعة. كيف بعائشة وقد كلمتها؟ قال: أنا لك بها، وأدلك على خير منها: أم كلثوم بنت على بن أبى طالب، تعلق منها بنسب رسول الله.

وأم كلثوم بنت على حدثت أيضاً، والمحظور فى أعضابها أكبر من المحظور فى إغضاب بنت أبى بكر، وإن اعتمد بن العاص على أن عمر يملك نفسه فلا يغضبها فقد كان حرياً به أن يعتمد على شىء من ذلك فى خطبته

(١) تجبه: تواجهه. (٢) حدثت: صغيرة السن.

لبنت الصديق.. فلن يفوت عمر - وهو يعلم من يخاطبه فى الأمر - أن يفهم سعيه، وأن يتجاهله لئلا يكف موقف الرفض والاعتذار من عائشة وأختها رضى الله عنهما، ويعمل بما يراه الصواب.

والطريق فى القصة - وكلها طريف - أن يذهب عمرو بن العاص إلى خليفته ليواجهه بما يؤخذ عليه من خلائقه وهو آمن أن يغضبه، بل هو فوق ذلك واثق من موافقته إياه ما دام على صدق فى مقاله.

وللمرأة أن تأبى الخشونة فى رجلها ولا تستريح إليها، ولكن دارس الأخلاق لا ينبغي أن يعيب هذه الخصلة إلا بمقدار ما فيها من نقص فى الطباع الإنسانية الأصلية. إذ المحقق أن الخشونة حرمان من الصقل والمرونة، ولكننا نخطئ كل الخطأ إن حسبناها حرماناً من البر والرحمة، لأن المرء قد يكون ناعم الملمس وهو قاس مفرط القسوة. ويكون خشن الملمس وهو رحيم مفرط الرحمة، ويغلب فى هذه الحالة أن تكون خشونة - كما أسلفنا فى فصل سابق، درعاً يستر بها مواضع اللين فى خلفه، وضرباً من الخجل أن يطلع على ناحية فيه تتطرق إليها الضعف وتنفذ منها الرماية. فالخشونة نفيض الصقل والنعومة، وليست نقيض العطف والرحمة، وعمر ابن الخطاب من أفذاذ الرجال الذين تتجلى فيهم هذه الحقيقة أحسن جلاء، حتى فى علاقته بالأهل والنساء.

رحمة عمر رحمة فى غلاف، وليست بالرحمة المشكوفة لكل ناظر ولا مس، ولا تطول بالناس عرته حتى ينقشع هذا الغلاف عن قلب ويع منهم بالعطف والمودة، مفتوح الجوانب لكل عاطفة كريمة ولو لم تكن من ولى وحميم.

فنساؤه اللائى عاشرنه قد كلفن بحبه ورضين عيشه لرضاهن بمودته وعطفه، وكانت إحداهن التى سميت العاصية وسمأها النبى عليه السلام لا تطيق فراقه، فإذا خرج مشت معه إلى باب الدار ولم تزل فى انتظاره.

وكانت من نسائه عاتكة بنت زيد، وهى على قسط وافر من الجمال  
ومن الدين ومن البلاغة، تولت<sup>(١)</sup> فى رثائه حين قتل فلم يكن بكأؤها عليه  
كبكاء كل زوجة على كل زوج فقيد، وتعددت قصائدها فى تأيينه بكلام لا  
يغيب عنه صدق المدح ولا صدق الحسرة، وهى التى قالت فيه:

عصمة الناس والمعين على الدهر      هو غيث المتاب والمحروب  
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا      قد سقته المنون كأس شعوب<sup>(٢)</sup>  
وقالت فيه:

رءوف على الأذى غليظ على العدا      أذى ثقة فى النائبات منيب  
متى يقال لا يكذب الله قوله      سريع إلى الخيرات غير قطوب  
وقالت فيه:

جسد لف فى كفانه      رحمة الله على ذاك الجسد  
وقالت فيه:

يا ليلة على نجومها      فسهرتها والشامتون هجود  
قد كان يسهرنى حذارك مرة      فاليوم حق لعينى التسهيد  
ولا يبكى الرجل هذا البكاء على ما فى الشظف إلا ومن وراء خشونته  
مودة قلب تنفذ إلى القلوب.

وأكثف ما تكون الدروع أرق ما يكون الموضع الذى يليها وأخوفه من  
الإصابة. فانظر أين الموضع الحصين المحمى فهنالك الموضع اللين الذى يخاف  
عليه، ولا نخدعنا عن ذلك خادع من إظهار أو تظاهر غير مشعور به، وغير  
مقصود.

(١) تولت: كاد عقلها يذهب من شدة الحزن.

(٢) شعوب: اسم للمنية "الموت"، سميت كذلك لأنها تفرق الخلائق.

أين أكثف ما تكاثفت الغلظة فيه من درع عمر التي عيانها؟

المرأة ولا نزاع!

فعلى المرأة كانت له غيره اشتهر بها وعدت من دلائل شدته عليها، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: "إن الله غيور يحب الغيور، وإن عمر غيور".  
وعلى المرأة ومن المرأة كان حذرهم أن تتخايل للعيون وتبرج في مضطرب الفتون.

وكلما أوصى بوصية فيها إنما هي الفتنة التي يتقيها، فلما قال عليكم بالأبكار لم يقل عليكم بالأبكار لأنهن أكتع وأنصر، ولكنه قال عليكن بهن لأنهن أكثر حبا وأقل حبا<sup>(١)</sup>.

ولما توجس من زواج المسلمين بينات الأعاجم ولم يتوجس منه لأنه حرام بل لأن "فى نساء الأعاجم خلافة، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نساكنكم".

فالخلافة هى المحدور الذى يتقى.

وهنا كثافة الدرع فابحث هنا عن منفذ الحذر. إنك لا تبعد كثيرا حتى تلمس الموضوع الذى نم عليه الرجل حيث قال: "لو أدركت عفراء وعروة جمعت بينهما<sup>(٢)</sup>". . . أو نم عليه الصبى الذى عناه ابن الخطاب حيث قال: "أحب أن يكون الرجل فى أهله كالصبى، فإذا احتجج إليه كان رجلا".

ومتى كان فرط الغيرة على المرأة أو الحذر منها دليلا على أنها ذلك الشيء المهين، وإن قال الغيور الحذور بلسانه أنها لشيء مهين؟ . . .

---

(١) الخب: الخداع.

(٢) عروه بن حزام: شاعر من الشعراء العشاق المشهورين وصاحبه عفراء، مات شهيد عشقه.

وابحث عن جانب واحد مغلق أو مقطوع من جوانب الرحم الذى ينبغي أن يوصل فإنك لن تجده فى نفس هذا الرجل بته، وإن جهدت فى البحث.

فكان ابناً باراً لا ينسى التحدث عن أبيه، ويعتز بذاكره على ما كان قسوته عليه فى صباه، ولم يزل يقسم باسمه حتى نهاه النبى، فانتهى وهو يقارب الكهولة.

وكان أباً يحب أبناءه ويعرف وجد الآباء بالأبناء، وينزع الثقة من وال لا يحنو على صغاره. . أمر بكتابة عهد لبعض الولاة فأقبل صبي صغير فجلس فى حجره وهو يلاطفه ويقبله، فسأله المرشح للولاية: أتقبل هذا يا أمير المؤمنين! إن لى عشرة أولاد ما قبلت أحداً منهم ولا دنا أحدهم منى. . فقال له عمر: وما ذنبى إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك. . إنما يرحم الله من عباده الرحماء. ثم أمر بكتاب الولاية أن يمزق وهو يقول أنه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية؟

وكان كلاب بن أمية الكنانى فى غزوة فاشتاق إليه أبوه الهرم وحزن لغيابه، واتصل نبؤه بعمر فكتب إلى قائد الجيش يستعيد كلاباً إلى المدينة. فلما عاد ودخل عليه سأله: ما بلغ من برك بأبيك؟ قال: كنت أكفيه أمره، وكنت اعتمد - إذا أردت أن أحلب لبناً - أغرد ناقة فى إبله وأسمها وأتركها حتى تستقر، ثم أغسل أخلافها حتى تبرد، ثم أحلب له فأسقيه.

ثم بعث إلى أبيه فجاء يتراوح فى مشيته ضعيفاً بصره، محنياً ظهره، فسأله: كيف أنت يا أبا كلاب؟. . قال: كما ترى يا أمير المؤمنين. . ثم جاءه بلبن حلبه ابنه ففطن الرجل وقال وهو يذنى الإناء إلى فمه: لعمر الله يا أمير المؤمنين أنى لأشم رائحة يدى كلاب من هذا الإناء!. . فقال عمر: هذا كلاب عندك حاضر قد جئناك به. فوثب إليه ابنه، وطفق الذى لم يكذب يراه

يضمه ويبله . . ويكى عمر، وأمر كلاباً أن يلزم أبويه ما بقيا، وله عطاؤه كأنه يجاهد فى سبيل الله .

ومن حنانه على الأطفال أنه كان يشفق عليهم أن يحزنوا فى لهوهم ولعبهم فلا يترك الخائف منهم حتى يأمن على لهوه ومحصول لعبه، فحدث سنان بن سلمة أنه كان فى صباه يلتقط البلح فى أصول النخل مع بعض الصبية إذ أقبل عمر فتفرق الغلمان وثبت هو فى مكانه، فلما دنا منه أسرع قائلاً: يا أمير المؤمنين، إنما هذا ما ألقى الريح! . . قال عمر: أرنى أنظر فإنه لا يخفى على . فنظر فى حجره ثم قال: صدقت . إلا أن الصبى لم يقنع بهذا حتى يحرسه أمير المؤمنين إلى بيته! . . فقال: يا أمير المؤمنين أترى هؤلاء الآن؟ . . وأشار إلى الصبية الهارين، ثم قال: والله لئن انطلقت لأغاروا على فانتزعوا ما معى، فمشى معه عمر حتى بلغه بيته! . .

وكثير على المصدقين المفرطين فى التصديق أن يعرفوا هذا عن عمر ثم يصدقوا أنه وأد بنتاً فى الجاهلية على تلك الصورة البشعة التى انتقلت إلينا فى بعض الروايات، وخلصتها أنه رضى الله عنه كان جالساً مع بعض الصحابة إذ ضحك قليلاً ثم بكى، فسأله من حضر فقال: كنا فى الجاهلية تصنع صنما مع العجوة فنعبده ثم نأكله وهذا سبب ضحكى، أما بكائى فلأنه لى ابنه فأردت وأدها فأخذتها معى وحفرت لها حفرة فصارت تنفض التراب عن لحيتى فدفنتها حية .

فهى قصة يعثورها الشك من ناحية ضحكها ومن ناحية بكائها ومن ناحية اجتماعها فى لحظة واحدة لتمكين واضع القصة من التفرقة بين عصرى عمر فى جاهليته وإسلامه، وأدعى ما فيها من الشك تلك الخاتمة التى يتم بها اختراع الفجيرة والبلوغ بها إلى ذروتها، وهى نفى الطفلة الصغيرة تراب حفرتها عن لحية أبيها .

فالوآد لم يكن بالعادة الشائعة بين جميع القبائل العربية، ولم يشتهر بنو

عدى خاصة بهذه العادة ولا اشتهرت بها أسرة الخطاب التي عاشت منها فيما نعلم فاطمة أخت عمر وحفصة أكبر أولاده وهى التى كنى أبا حفص باسمها . وقد ولدت حفصة قبل البعث الإسلامى بخمس سنوات فلم يتدها . فلماذا وأد الصغرى المزعومة وهى فى السن التى تفهم فيها كيف تنفض التراب عن لحية أبيها؟ . . ولماذا انقطعت أخبار هذه الصغرى المزعومة فلم يذكرها أحد من إخوانها وأخواتها ولا أحد من عمومتهما وخثولتها؟

ما نحسبها إلا إحدى جنائيات الأعراب على من خلقوا وفى سيرتهم مثال للأعراب والإعجاب . فهى اختراعه تصفعها قرائن التاريخ وتضعفها خلالتق عمر التى لا تتبدل هذا التبدل من التقيض إلى التقيض بين جاهليته وإسلامه . وقد كان عمر فى جاهليته لم يسلم بعد يوم أشفق على أخته وهى دامية الوجه، وكان فى جاهليته يوم أحب أخاه حبه المفرط وبقي عليه . فليس وقوع القصة المزعومة فى الجاهلية مانعاً لغرابتها ومقرباً لتصديقها، وغير هذا الأدب وهذا الأخ يطبق هذه القسوة التى لا تطاق .

إن قليلا من الآباء من أحب أبناءه كما أحب عمر أبناءه، وإن قليلا من الأخوة من أحب أخاً كما أحب عمر زيدا أخاه، فما سمع اسمه بعد مقتله إلا سألت عبرته، وما هبت الصبا كما قال إلا وجد نسيم زيد وتمنى نظم الشعر لينظمه فى رثائه .

بل إن قليلا من الأصدقاء من أخلص لأصدقائه وعشرائه كما أخلص عمر لكل صديق وعشير . . وهو القائل: " لقاء الإخوان جلاء الأحران " ، وهو القائل حرصاً على المودة وضنا بها: " إذا أصاب أحدكم ودًا من أخيه فليتمسك به، فقلما يصيب ذلك " .

فإذا أردنا أن ننقب عن وشائح الرحم وصلات المودة فى نفس هذا الرجل المهيب المخيف فلننقب عنها فى ينايعها الخفية التى نسرى منها وترقرق

فى نواحيها، ولا نقيب عنها فى الصخور التى تكتنفها وتطفو عليها وترفع  
عليها وترفع أعلامها.

أو نحن حويون أن نقيب عنها بين هذه الصخور والأعلام ولكن على  
هدى وبصيرة. فلا نقنع منها برأى العين من بعيد أو قريب، ولا نغتر بما تبديه  
كأنه كل شىء تحتويه.

فما هذه الصخور والأعلام التى كانت تروع الناظر من هيبه عمر  
ومن ملامح سميائه؟.. هى مظهر قدرته على نفسه لا أكثر ولا أقل، وهى  
الحارس اليقظ الذى يحمى تلك النفس أن يتسرب إليها الوهن وأن تؤخذ على  
حين غزاة، من حيث يخاف عليها. والمرء لا يعتصم بقدرته على نفسه وهو  
آمن، ولا يوقظ الحارس على دخيلته وهو وادع فى سره. وإنما يعتصم بقدرته  
ويوقظ حارسه حين يحذر، وإنما يحذر من الطارق الذى لا يستهن ولا يزال  
على رقبة منه.

وقد كان عمر بن الخطاب أكثر ما يكون اعتصاماً بقدرته فى أمس الأمور  
بقلبه ومسريرة طبعه: فى خشية الخديعة من ناحية الترف والمتعة، فهو لا  
يستسلم لشهوة مآكل ولا ملابس ولا قنية دنيوية، وفى خشية الخديعة من ناحية  
ولده وولده وأهله فهو بحفل من أن يرى لعم رزقا لا يعرف مآتاه، وبحفل  
من أن يرى لهم رزقا لا يعرف مآتاه، وبحفل من أن يرى لعم إبلا سمانا بين  
الإبل العجاف مخافة أن يسميها لهم الناس فى مراعيهم.. لأنهم ولد أمير  
المؤمنين وتلك إبل أبناء أمير المؤمنين!..

وكان أكثر ما يكون اعتصاماً بقدرته حين يلمح الفتنة الكبرى التى يقدر  
بها شيطان الغواية.. وتلك هى المرأة لا فرق بين خيارها وشرارها، فمن  
شرارها استعذ بالله!.. ومن خيارها كن على حذر!..

وإذا اعتصم عمر بن الخطاب بنفسه فانتظر شيئاً واحداً لن تجد حولا  
عنه، وهو تقديره العدل تقديره الخائف أن يريد فيه شعره أو ينقص منه

شعره. فمتى اعتصم بنفسه استيقظ وانتصر، ومتى استيقظ وانتصر فللحق يقظته وفي سبيل الحق انتصاره. يعرض شأن المرأة فهو الغيور الحذور، وهو الواقف على الميزان فيما تعطاء وفيما تعطيه، فلا هي بظالمة ولا مظلومة في كل أمر يرجع إليه.

فمن همة كان ألا تظلم لضعفها، ولا تغبن لحياثها وخفرها، ومن حقها عنده ألا تكره على زواج الرجل القبيح لأنها تحب لنفسها ما يحبه الرجل لنفسه، وأن يعرف لها عذرها حيث يعرف للرجل عذره في الصلة بينها وبينه. فسمع مرة أعرابية تنشد:

فمنهن من تسقى بعذب مبرد نقاح<sup>(١)</sup> فتكلم عند ذلك قرت  
ومنهن من تسقى بأخضر آجن<sup>(٢)</sup> أجاج ولولا خشية الله فرت  
فتوهم في زوجها عيبا وأرسل في طلبه فإذا هو متغير الفم، فخيره بين  
خمسمائة درهم وإطلاقها، فقبل الدراهم وطلقها.

وسمع امرأة من وراء بابها تنشد:  
تطاول هذا الليل تسرى كواكبه وأرقنى ألا خليل ألعبه  
فو الله لولا الله لا شيء غيره لزلزل من هذا السرير جوانبه  
فسأل عن زوجها فعلم أنه خرج في غزوة طالت غيبته فيها، فأمر بعد  
ذلك ألا تطال غيبة الأزواج في الغزوات.

وكان يقبل شكوى المرأة من زوجها الذي يهمل النظافة والزينة، لأن النساء 'يجبن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزين لكم'.

(١) النقاح: الماء العذب الصافي.

(٢) الأجن: الماء المتغير الطعم واللون: والأجاج: المالح المر.

وقبل شكوى المرأة من زوجها الخاضب<sup>(١)</sup> قبل البناء بها يوهمها أنه شاب وهو موخوط الرأس بالشيب، فأوجعه ضرباً وقال: غررت القوم. ولم يكن يتحرج مع المرأة مثل هذا التحرج أن نستمر من سيرتها ما لا يضير مستره إن عاق زواجها. فكاشفه رجل بأمر ابنه له أسلمت وأصابها حد من حدود الله، فهمت أن تذبج نفسها. فأدركها أهلها وقد قطعت بعض أوداجها<sup>(٢)</sup>، فبرئت وتابت واستقامت على الهداية. فسأله: أخبر القوم الذين يخطبونها بما تقدم من سيرتها؟.. وقال: ويلك!.. أتعمد إلى ما مستره الله فتبديه؟ والله لئن أخبرت بشأنها أحداً من الناس لأجعلنك نكالا. "أنكحها نكاح العفيفة المسلمة".

فهى أولى عنده ببعض المحاباة حين لا ضير فى المحاباة. وقد عاهد الناس فيما عاهدهم عليه "ليمنعن النساء إلا من الأكفاء".

وترى أنه قضى فى الخلاف بين الزوج والزوجة بالقول الفصل فى بناء الأسر وتعمير البيوت، حيث قال لرجل هم بطلاق امرأته لأنه لا يحبها: أو كل البيوت بنى على الحب؟ فأين الرعاية والتزم؟".

فإنه لبر بربات البيوت لم يدركه متحذلقه لم يدركه متحذلقه العصر الذين يلغظون بالحب والزواج ويجهلون أن الرعاية والتلنم أقمى بالدوام والتعمير من زواج يبنى على الحب وحده، لأن الحب منوط بالأهواء التى تتغير بين آونه وأخرى، وأما مناط الرعاية والتلنم فهو الأخلاق التى قل أن يطرأ عليها تغيير.

وقد استشار النساء فيما يحسن كما استشار الرجال فيما يحسنون، ولم يتعال قط أن يرجع عن خطئه إذا ردت عنه امرأة بالبينة الصادعة<sup>(٣)</sup>، ومن ذلك

(١) الخاضب: الذى يخضب بالحناء أو نحوه.

(٢) الأوداج: جمع ودج وهو عرق فى العنق.

(٣) البينة الصادعة: المراد، البينة التى تملك على الأذعان والتصديق.

أنه نهى الناس في بعض خطبه أن يزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية، فصاحت به امرأة فسطاء من صفوف النساء: ما ذاك لك؟ فلم يأنف أن يسألها: ولم؟ قالت: لأن الله تعالى يقول: "... وأتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا"، فرجع عن خطئه واعترف بصوابها.

فما للمرأة من حق تعطاه، وما ليس لها بحق لا تعطاه وتذاد عنه.

والذى ليس لها بحق في رأى عمر - ورأى كل رجل ذى رجولة - ألا تتعرض لعمله الذى لا تفهمه، ولا يرجع إليها في أمثلة، ولاسيما أن كان شأننا من شئون الدولة، ومهمة من أخص مهام الرجال، فتشفت له امرأته في وال مقصر تسأله: فيم وجدت<sup>(١)</sup> عليه؟.. فالتفت غاضبا وقال لها: وفيم أنت هذا؟.. إنما أنت لعبة يلعب بك ثم تتركين!. كلمة لا تلبس القفاز الناعم، ولم يخلق القفاز الناعم ليلبس في كل حين.

والذى ليس بحق للمرأة أن تعدو على كلمة وليها، وهذا الذى كان ينكره عمر على أهل المدينة حيث قال: "... كما معشر قرى نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار. وصحت على امرأتى فراجعتنى، فأنكرت أن تراجعنى. قالت: ولم تنكر أن أرجعك؟ فوالله أن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وإن إحداهن لتتهجره اليوم حتى الليل... فأفزعنى...".

نعم هذا مفزع لعمر، وقد كان ولا ريب مفزعا لرسول الله أن تعلق كلمة على كلمته في بيته، لكن طريقة محمد في تغليب الكلمة طريقه نبي يؤم متبعيه، وطريق عمر طريقه مريد بنبوه، ولا جناح على عمر ألا يلحق بشأو محمد في كل ما سبق إليه.

(١) وجدت عليه: غضبت "من الموجدة".

فمحمد إنسان عظيم، وعمر رجل عظيم. وهذا هو الفارق بينهما كما يبناه في مناسبة سابقة. وإنما الفارق بينهما في المسابقة التي نحن بصددتها أن الرجل العظيم يرحم المرأة كما يرحمها الجندي في معرض القوة والنضال، ولكنه يأنف أن يستكين لسلطانها في معرض الهوى والفتنة، فيكسرهما ولا ينكسر لها إذا لجت في الغرور وانطلقت في عنانه. ومن ثم استصغر عمر ولده نفسه - عبد الله - لأنه عجز عن تطليق زوجته فلما أشاروا عليه باستخلافه قال لمن كلمه في ذلك: "ويحك! كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته؟"

أما الإنسان العظيم فهو يشمل ضعف الإنسانية كله ويعطف عليه. ومنه ضعف المرأة في غرورها واعتزازها بدلال الضعف على القوة، لأنه في حقيقته اعتزاز بمكانها منها وتقدير لتلك القوة في بعض نواحيها. فهو يرى في تكبر المرأة إذا كانت كبيرة عنده نوعا من الاعتراف بكبره، وهو لا يقف معها في ميدان كما يقف كل ذكر وأُنثى، لأن ميدانه هو يشمل الميدانين مجتمعين، إذ هو ميدان الإنسان كله والإنسانية جمعاء.

على أن شاء الرجل مع المرأة لا يظهر من رأى الرجل فيها كما يظهر من رأيها فيه، فبعد عمر للمرأة وقوله فيها يبقى له شأن في عالمها يظهر لنا من رأيها هي فيه.

وقد أكبرت سيدة نساء العصر عمر فموصفته بأنه كان نسيج وحده، وهي عائش رضي الله عنها، وجمعت الشفاء بنت عبد الله بعض صفاته فقالت إنه "كان إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقًا". وصاحت أم أيمن مرضعة النبي يوم أصيب: اليوم وهي الإسلام.

وعليتنا نحن أن نسأل المرأة في عصر عمر عن مثال الرجل في عصرها ولا نسأل فيه نساء زمان غير الزمان. وما نخالنا نعرف الرأى يومئذ في الرجل

الذى يكبر فى عينها كما نعرفه من امرأة هى هند بنت عتبة زوج أبى سفيان وأم معاوية، فليس أقدر منها على الجواب ولا أصرح فيه.

جاءها أبوها فى رجلين من قومها يخطبانها فاستخبرته عنهما فقال يصفهما: "أما أحدهما ففى ثروة وسعة من العيش، أن تابعته تابعك، وأن ملت عنه حظ إليك، تحكمين عليه فى أهله وماله. وأما الآخر فموسع عليه، منظور إليه فى الحسب الحسيب والرأى الأريب، مدره أرومته<sup>(١)</sup> وعز عشيرته، شديد الغيرة لا ينام على ضعة، ولا يرفع عصاه عن أهله".

فقال: "يا أبت! الأول سيد مضياح للحررة، فما عست أن تلين بعد أبائها، وتضع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشرت<sup>(٢)</sup> وخافها أهلها فأمنت؟.. ساء عند ذلك حالها، وقبح عند ذلك دلالتها، فإن جاءت بولد أحمقت. وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت<sup>(٣)</sup>. فاطو ذكر هذا غنى ولا تسمه على بعد!.. وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العقلية<sup>(٤)</sup>، وإنى لأخلاق مثل هذا لموافقته. فزوجينيه". ونحن نحسب هذا رأى المرأة النجبية فى زمان عمر، ولو شئنا لحسبناه رأيها فى كل زمان على أن تضره بباطن القلب ولا تلقيه بطرف اللسان. فإن زادت خشونة العيش فى بيت عمر على القدر الذى ترضاه المرأة فهى خشونة غير محقورة السبب، لأنها لا تحسب على عمر "الزوج" من ناحية حتى تحسب لعمر "الرجل" من ناحية أخرى. إذ هى لم تأت من قلة القدرة على العيش وإنما جاءت من كثرة القدرة على النفس، وهى خليفة تعجب بها المرأة فى الرجل الذى تكبره، لأنها من أقوة خلائق الرجولة فيه.

(١) المدره: السيد الشريف يقدم فى اللسان واليد، والأرومة: الأصل.

(٢) الأشر: البطر.

(٣) احمقت: ولدت أحقق، وأنجبت: ولدت نجيبا.

(٤) الخريدة: العذراء فيها حياء وخفر، والعقلية: الكريمة.

وليس لدينا بيان واف عن النساء اللاتي تزوج بهن عمر يعيننا على التمييز بين سماتهن والبحث في المياسم الشخصية التي يتعدن فيها أو يختلفن، ويجيز لنا أن نسهب في الكلام عن موقع كل منهن من نفسه، وأثرها في حياته، ومبلغ حظورتها عنده، وسبب هذه الحظوة في رأيه وشعوره، وما يدل عليه جميع لك من نوازع فطرته وذوقه. فقد سكت التاريخ وسكت عمر عن كل بيان واف في هذا الباب، فعلم يبق لدينا منه إلا أسماء وأعوام ونوادير مقتضبات، لا تساعدنا على تكوين سمات واضحات فضلا عن التفرقة بين تلك السمات.

غير أننا نعتقد أن التاريخ لم يفقدنا شيئا كثيرا في هذا الباب، لأن مستطيعون أن نعوض ما فقدناه بالقياس إلى ما عرفناه، فلا تخطيء إذا رجحنا إن سمات هؤلاء النساء جميعا تدخل في نطاق الوصف الذي كان يستحبه عمر في المرأة ولا يطبق منها أن تخالفه وتخرج عليه.

فأفضل ما كان يشرطه في المرأة أن تكون ولودا ودودا، وألا تعاب بالحمق فيسرى حمقها في دماء وليدها، إذ "لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر إلا خرج مائقا"<sup>(١)</sup> كما قال.

أما ذوق الجمال فقد كان عمر فيه كما كان في جميع خلائقه عرييا بحتا يستملح ما يستملحه كل عربي صميم، ويستحسن الحسن عنده وهو أعم من الملاحاة ويروى عنه أنه قال: "تزوجها سمراء ذلثاء"<sup>(٢)</sup> عيناء"<sup>(٣)</sup>، فإن فركتها"<sup>(٤)</sup> فعلى صداقها" وأنه قال: "إذا تم بياض المرأة في حسن شعرها فقد تم حسنها"، وهذان هما الملاحقة والحسن كما وصفا في الشعر العربي من قديم إلى حديث.

(٢) صغير الأنف.

(١) المائق: الأحمق الغبي.

(٣) عيناء: حسنة العين واسعتها.

(٤) فركتها: أبغضتها وتركتها.

ومن القليل الذى بقى لدينا من أخبار نسائه نعلم أنه كان موفور الحظ من هذا الجمال فى الزوجات، فقد وصف أكثرهن بالحسن البارع، وضرب المثل بملاحة إحداهن بين نساء قريش وهى قريبة بنت أبى أمية بن المغيرة. فروى فى مآثور الحديث الشريف أن سعد ابن عبادة قال يوما فى حضرة النبى عليه السلام: ما رأينا من نساء قريش ما كان يذكر من جمالهن! فقال له عليه السلام: "هل رأيت بنات أبى أمية بن المغيرة؟ هل رأيت قريبة؟"، وهى إحدى زوجات عمر قبل إسلامه.

وروى أن جميلة بنت ثابت بهذا الاسم لجمالها، وكان اسمها فى الجاهلية عاصية، فكرهته بعد إسلامها وسألت عمر ثم سألت النبى فى تغييره فاتفقا على تسميتها بوصفها ونوديت بعد ذلك باسم جميلة. وروى عن عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل أنها أعطيت شطر الحسن مع ما رزقته من الفصاحة والتقوى. وروى مثل ذلك عن زوجات أخريات، وإن لم يتفوقن هذا التفوق المشهور.

ومن أخبار زوجاته أنه طلق اثنتين من أشهر نسائه بالجمال وهما قريبة وجميلة. . تزوج بالأولى وطلقها قبل إسلامه، وتزوج بالثانية وطلقها بعد إسلامه، ولا ندرى على التحقيق ما سبب تطلق هاتين الزوجتين الجميلتين، فهل هو دلال الجمال ضاق به صدر عمر وهو شמוש المرأة غير صبور؟ . . لعله ذاك، ولعل الذى أبقى عاتكة بنت زيد فى عصمته أنها تجاوزت دلال الصغر حين بنى بها، أو غضت، من دلالها بالفطنة والتقوى.

وكذلك بقيت فى عصمته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وهى جميلة صغيرة، وولدت له ابنا سماه أخيه زيد الذى كان يحبه ويذكره ويطلب البكاء عليه، وأعزها عنده النسب والأدب والمحافظة على أصرة النبوة، فلم يفترقا فى الحياة ولم ينشب بينهما خلاف إلا حين جاءت الهدية من ملكة الروم فضمها إلى بيت المال.

وله مع إحدى أولئك الزوجات قصة صغيرة لا يفوتنا إيرادها في الكلام على حياته الخاصة لأنها كثيرة الدلالات عليه: تدل على عمر في أبوته، وتدلل على عمر في سورة طبعه، وتدلل على عمر في مثوبته إلى الحق كلما وجب أن يثوب إليه.

فقد طلق جميلة ولد منها ولد صغير، فرآه يوما يلعب مع الصبيان فحمله بين يديه، فأدركته جدة الشموس بنت أبي عامر وجعلت تنازعه إياه حتى انتهيا إلى أبي بكر رضى الله عنه وهو خليفة، فقال له أبو بكر: خل بينه وبينها فهي حاضته، فرده إليها ولم يراجعه بكلمة.

ولعمري أن في هذه القصة الصغيرة من الدلالة عليه لما يغنى عن قصص، وفيها عمر إنسان عطوف، وفيها عمر رجل سوار الطبيعة، وفيها عمر صاحب خلق مكين يكبح من طبيعته كل سورة جاوزت حد العدل والإنصاف، وهذا هو عمر في شتى نواحيه.

وقد تدل هذه القصة على شيء يبرئه من بعض اللوم في تطليقه أم هذا الولد فاسمها عاصية واسم أمها الشموس، وكأنهما - ينيئ عنهما هذان الاسمان - من أسرة تباهى بدلال بناتها وشموسهن وتختار لهن من الأسماء ما يدل على هذه الخصلة، وقد يضيف إلى توكيد هذه الخصلة فيهن أن عاصية غضبت حين اختار لها عمر اسم جميلة وقالت له: سميتني باسم الإمام! ثم اختار لها النبي هذا الاسم فقالت: يا رسول الله! أتيت عمر فسماني جميلة فغضبت، قال عليه السلام: أو ما علمت أن الله عز وجل عند لسان عمر وقلبه؟.

فكأنها نشأت في قوم يعتقدون أن التحسين والترغيب إنما هو من شأن الإمام، وأن الشموس والعصيان أليق بالخرائر أزواجهن وأحبوهن، فإن كان في تطليقها مأخذ على عمر فقد يكون فيه مأخذ عليها تفسر لنا افتراقهما بعد ما أحبها وأحبته.

ورزق عمر الذرية من ذكور وإناث نجباء ونجيبات، فقوت عينه بهم لأنه كان كأهل البداوة كافة يستكثر من الذرية ويوصى الناس أن يستكثروا منها، وكانوا جميعاً عنده بمكان الحب والمودة ولا يخشى الانحراف عن العدل من جانب كمننا يخشاه من جانب هذه الذرية أو جانب أهله على التعميم، ولهذا كان بجمعهم إذا نهى الناس عن حوزة حق من الحقوق فيبلغهم أنه قد نهى عنه ويذكرهم "إن الناس ينظرون إليك نظر الطير إلى اللحم"، ويقسم لهم لئن فعله أحد منهم ليضاعفن عليه العقوبة! وليس بنا أن نحصى فتناواه وأفضيته في محاسبة أهله أو محاسبة أبنائه خاصة قبل سائر أهله. فذلك عمل له لم ينقطع عنه طوال حياته، ولنا نكتفى بمثل من أمثال عديدة متواترة وهو قضاؤه في أبحار أبنائه بمال من بيت مال المسلمين، وذلك أن ابنه عبد الله وعبيد الله خرجا في جيش إلى العراق، فلما قفلا نزلا بالبصرة وذهبا إلى أبي موسى وهو أميرها، فقال لهما: لو أقدر على أمر أفنكما به؟ ثم عرض عليهما أن يحملا إلى أبيهما مالا من مال الله فبشريا به متاعا من العراق يبيعهان بالمدينة، ثم يؤديان رأس المال ويكون لهما الربح. فلما علم عمر سألها: أكل الجيش أسفله؟ ثم أمرها أن يؤديان المال وريحه. فسكت عبد الله وقال عبيد الله: ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين من هذا، لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه! وقال رجل في المجلس: يا أمير المؤمنين<sup>(١)</sup> لو جعلته قراضاً؟ فأخذ رأس المال ونصف ربحه، وأخذ ابنه نصف ربح المال.

وإنما كان عمر يتبقى محاباة الولاة لأبنائه وذويه وإقرار هذه المحاباة بإذنه، ولكنه كان يقترض من بيت المال ليتجر ويربح ما يعيش به في أهله، ويلجأ إلى التجارة لقلّة رزقه الذي فرضه لنفسه من بيت مال المسلمين، وقد فرض رزقه لنفسه بعد مشاورة أصحاب رسول الله صلى الله عليه، فقال عثمان: كل واطعم، وقال علي: ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف، وقال هو: إن

(١) الفرائض: فراضة فراضاً، أى دفع إليه مالا ليتجر فيه ويكون الربح بينهما على ما شرطاً.

افتقرت أكلت بالمعروف، وإن أيسرت قضيت. وكان يفترض فيسر فيتأخر،  
فيأتيه صاحب بيت المال ويشتد في تقاضيه، فيحتال له عمر ويؤجله إلى أن  
يستحق عطاءه مع عطاء المسلمين، فيسد به دينه.

ومع هذا كان يشفق أن يفترض من بيت المال إلا أن يتعذر عليه  
الافتراض من بعض صحبه. فأرسل مرة إلى عبد الرحمن بن عوف في طلب  
أربعة آلاف درهم يجهز بها غيراً<sup>(١)</sup> إلى الشام. فعاد الرسول يقول له: خذها  
من بيت المال ثم ردها. ! وشق ذلك عليه فلقي صاحبه وعلم منه صدق ما  
بلغه فقال: أفئن مت قبل أن تحييء قلم أخذها أمير المؤمنين دعوها له. وأخذ  
يوم القيامة؟: "لا... ولكنى أردت أن أخذها من رجل حريص شحيح  
مثلك، فإن مت أخذها من ميراثي".

وحدث ما توقعه من مجيء الأجل قبل دينونه جميعاً قلم يشغله الموت  
ولا شغلته كبار الخطوب التي كبار الخطوب التي يضطلع بتصريفها قبل موته  
أن يسأل عن ديونه ويوصى بسدادها من ماله ومال أهله، وقال لابنه: "إن  
وفى به - أى بالدين - مال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فاسأل فيه بنى،  
فإن لم تف أموالهم فاسأل فيه قريشاً ولا تعدهم"<sup>(٢)</sup> إلى غيرهم". وكان عبد  
الرحمن بن عوف حاضراً فأشار عليه مقترحاً أن يستقرضها من بيت المال حتى  
تؤدى، فلم يقبل عمر، ودعا بابنه عبد الله فقال: اضمنها! فضمنها، ووفى  
بوعده. فلم يدفن أبوه حتى أشهد بها على نفسه أهل الشورى وعده من  
الأنصار، وما انقضى أسبوع حتى حمل المال إلى عثمان، وأحضر الشهود  
على البراءة بدفعه، وقد بيعت دار في هذا الدين وسميت زماً باسم دار  
القضاء، لأنها بيعت في قضاء دينه.

ولأن يكون عمر مدينا موفى الدين لهو أعظم الشرفين... وأيسر من  
ذلك شرفاً أن يموت غنياً بغير دين.

(١) العير: الإبل التي تحمل الزاد.

(٢) أى لا تجاوزهم وتتركهم لتسأل غيرهم.